بنية المعجم الشعري ودلالاته
في "شعر أبي العلاء المعري المجهول"
"دراسة نقدية"

دكتور/ يحيى عبد العظيم حسانين
الأستاذ المساعد للغة العربية وآدابها
كلية العلوم والآداب ببلقرن ــ جامعة بيشة

" **ملخص البحث** "

تتناول هذه الدراسة بعد التمهيد:

" **بنية المعجم الشعري ودلالاته في شعر أبي العلاء المعري المجهول** "، **وذلك من حيث:**

ــ **بنية** المعجم الشعري ودلالات اللغة في المكتشَف من شعر أبي العلاء المعري؛ خاصة لزومياته الجديدة.

ــ **البنية** الدلالية في لغة المعري، واستخدامات المعاجم لها، وكيف يربط أبو العلاء من خلال ثقافته الواسعة بين أطراف المعاني وتلك الثقافة.

ثم نصل إلى أهم النتائج والتوصيات، وتنتهي الدراسة بثبت المصادر والمراجع.

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة " **بنية المعجم الشعري ودلالاته في** " **شعر أبي العلاء المعري المجهول** "، والذي اكتشفناه خلال دراستنا للدكتوراه وتحقيقنا لكتاب " لُمَح المُلَح للحظيري الورَّاق "، ويعدُّ هذا البحث جديدا؛ لأنه لم يسبق لأحد من الباحثين والنقاد ــ فيما أعلم حتى الآن ــ التعرض لشعر المعري المجهول، فقد جمعت خلال هذه المرحلة أبياتا ترقى لأن تكون ديوانا جديدا للمعري، ومازلت أنقب عن أشعار أُخَرَ له تربو على السبعمائة بيت جديد.

وقد آليت على نفسي أن أعالج هذه الأشعار معالجة تحليلية؛ تنبئ عن رؤية المعري أحمد بن سليمان التنوخي للشعر واللغة تبرز رؤيته للعالم من حوله.

ومن المعلوم أن **بنية المعجم الشعري ودلالاته** في النص؛ هي البوابة الرئيسية الأولى التي نصل من خلالها إلى الدلالات الإنسانية والثقافية والقيمية التي يطرحها النص الشعريُّ، فعند تمام التشكيل الجمالي؛ يحدث التوصيل الدلالي، وأظن أن هذا الشعر المجهول لشيخ المعرة؛ سوف يفتح شهية الباحثين لأن يعالجوه على مستويات متعددة أُخَر؛ حتى تكتمل صورة المعري الشاعر في عقولنا وثقافتنا.

أهداف الدراسة:

تتناول هذه الدراسة بنية المعجم الشعري من حيث دلالات اللغة التي استخدمها أبو العلاء المعري في المكتشَف من شعره؛ خاصة لزومياته الجديدة التي ــ أزعم أن القارئ الكريم ــ يطلع عليها لأول مرة في بحث يقدمها للمرة الأولى، والدلالات المتعددة المعاني وما دار حول هذه الكلمات في معاجم اللغة التي كان المعري أكثر غوصا، وأكثر براعة في استخدامها في تراكيبه وأساليبه الإبداعية.

ووسمت هذه الدراسة بعنوان:" **بنية المعجم الشعري ودلالاته في شعر أبي العلاء المعري المجهول** ".

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع الدلالات المعجمية والمعنوية في شعر أبي العلاء المعري، وذلك من خلال الاطلاع على أبياته الجديدة التي اكتشفتها خلال دراستي للدكتوراه، والغوص في تلك المعاني معجميا ودلاليا؛ حتى يتسنى لنا الكشف عما كان

يعتمل وجدان المعري الشاعر خلال كتابته قصائده؛ خاصة تلك اللزوميات التي نطلع عليها للمرة الأولى في هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث في كشاف الرسائل الجامعية والمواقع الإلكترونية وغيرها؛ لم أجد دراسة تتناول شعرا مجهولا لرهين المحبسين أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري، ولم أجد دراسة محكَّمةً تحمل عنوان:" بنية المعجم الشعري ودلالاته في شعر أبي العلاء المعري المجهول "، فجعلت الله حسبي، وعليه توكلي، وعمدت إلى هذه الدراسة؛ لعل الله ينفعني به، وينفع بها.

منهج الدراسة:

تتخذ هذه الدراسة المنهج التحليلي لبنية المعجم الشعري عند أبي العلاء المعري ودلالاته، بما يوضح رؤيته للعالم من خلال شعره المجهول.

حدود الدراسة:

تقتصر حدود هذه الدراسة على:" **بنية المعجم الشعري ودلالاته في شعر أبي العلاء المعري المجهول** " مع تقديم بعض نماذج من أشعاره الجديدة ولزومياته التي تظهر فيها شخصية أبي العلاء وتراكيبه وأساليبه الإبداعية في استخدام اللغة التي يزخر بها معجمه الشعري ودلالاته الناطقة بالجمال الذي يتميز به المعري دونما سواه.

وقد رتبت هذه الدراسة على النحو التالي:ـ

ـ **المقدمة:** عرَّفت فيها بالموضوع وأهميته، وأسباب العناية به.

ـ **التمهيد:** وفيه بيان المراد بـ:" بنية المعجم الشعري ودلالاته في شعر أبي العلاء المعري المجهول ".

ـ **المبحث الأول: ويتناول:**

بنية المعجم الشعري ودلالات اللغة في المكتشَف من شعر أبي العلاء المعري؛ خاصة لزومياته الجديدة.

ـ **المبحث الثاني: ويدور حول:**

البنية الدلالية في لغة المعري، واستخدامات المعاجم لها، وكيف يربط أبو العلاء من خلال ثقافاته الواسعة بين أطراف المعاني وتلك الثقافة.

ـ الخاتمة:

وتتضمن أبرز نتائج الدراسة والتوصيات المقترحة التي توصلت إليها.

ـ ثبت المصادر والمراجع.

واللهَ الكريمَ؛ أسألُ أن يتقبل منا أعمالنا خالصة لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما يعلِّمنا إنه نعم المولى، ونعم النصير.

تمهيد:

أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي؛" ولد سنة ٣٦٣ بالمعرة وجدر في السنة الثالثة من عمره؛ فعمى منه. وهو مجدر الوجه نحيف الجسم. قَالَ الشعر وهو ابن إحدى أو اثنتي عشرة سنة، وكان يرميه أهل الحسد بالتعطيل، ويعملون على لسانه الأشعار؛ يضمنونها أقوال الملاحدة قصدا لهلاكه. وقد نقلت عنه أشعار تتضمن صحة عقيدته، وكذب ما ينسب إليه من الإلحاد. مات سنة ٤٤٩ هـ "(١).

تلقت المكتبات العربية على مدار تاريخنا الثقافي الطويل ضربات متتالية، في كل مكان من ربوع البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها؛ كان " حظ الثقافة الإسلامية تعسا، فضاع الجانب الأكبر من هذه المخطوطات أثناء الاضطرابات السياسية، وخلال عصر الاحتضار.

ضاعت مكتبة العزيز المصرية خلال الفتنة التي حدثت عام ١٠٦٨ م، حين عمَّ القحط، وانتشر الوباء، وحصد الطاعون الناس حصدا، ووقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك، وكانوا القادة، أغاروا على المكتبة، ويقول المقريزي: إن الكتب الجليلة المقدار، المعدومة النظير في سائر الأمصار، صحة وحسن خط وتجليدا وغرابة، قد اتخذ عبيدهم وإماؤهم من جلودها نعالا وأحذية، ثم أحرقوا أوراقها زعما منهم أنها تحوي كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم.

وعندما دخل صلاح الدين القاهرة منتصرا، بعد هذه المأساة بقرن من الزمان، وجد بقايا المكتبة في القصر الملكي تضم مائة ألف مجلد أو يزيد، فوزع بعضها على بعض رجاله، وبيع بعضها على يد خبير بالكتب يدعى ابن صورة "(٤).

لم يقتصر التخريب والضياع الذي أكل كبد المكتبات العربية على ما حدث، بل تعداه إلى ما هو أكثر من ذلك فعندما " اقتحم هولاكو مدينة بغداد عام ٦٥٦هـ ـــــ ١٢٥٨م، أباح عاصمة بنى العباس أربعين يوما، وكان الدمار الذي أصاب الثقافة العربية والإسلامية مريعا، فألقيت مئات الألوف من المخطوطات في نهر دجلة، ولم يكن نصيب الكتب العربية من الدمار خلال زحف تيمور لنك بأقل منه على يد هولاكو، وفي الغرب الإسلامي؛ تعرض التراث الإسلامي لنفس المحنة، أو أشد قسوة"(٥).

لذلك فالكارثة في هذا الأمر بالنسبة لنا ــ نحن العرب والمسلمين ــ كارثتان: أولاهما: أنَّ كثيرا من تراثنا العربي والإسلامي قد فُقِدَ، وضاع أكثره؛ حتى إنني ــ

وأنا أطالع بعض المخطوطات التي ما زالت قيد التحقيق أكتشف أن هناك كتبا لمشاهير من علماء الأمة الأجلاَّء في عصرها الأزهر لم ترد عناوينها حتى بين فهارس المفقود من تراثنا العربي والإسلامي التي بين أيدينا.

وثانيتهما: أن جُلَّ تراثنا العربي والإسلامي يظل قابعا في مكتبات أوربا خاصة عيون التراث بنسبة تقترب من خمسة وتسعين في المائة، ويتبقى أقل القليل خمسة في المائة فقط في مكتباتنا العربية والإسلامية.

من هنا يكون مدخلنا إلى ذكر بعض مؤلفات أبي العلاء المعري التي بين أيدينا، يقول صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات:" وشعره كثير إلى الغاية وأحسنه سقط الزند؛ هذا غير مؤلفاته العديدة التي ذكرها صاحب معجم الأدباء، وياقوت الحموي في وفيات الأعيان، و**من تصانيفه كتاب (الأيك والغصون) في الأدب يربو على مائة جزء، (تاج الحرة) في النساء وأخلاقهن وعظاتهن، أربعمائة كراس، و(عبث الوليد–ط) شرح به ونقد ديوان البحتري، و(رسالة الملائكة–ط) صغيرة، و(رسالة الغفران–ط)،و(الفصول والغايات –ط)، و(رسالة الصاهل والشاحج).**

وأثناء العمل في رسالتي للدكتوراه؛ وجدت شعرا للمعري يربو على مئة وخمسة وأربعين بيتا جديدا له؛ ليست موجودة في أيِّ مصدر من مصادر الأدب العربي. حتى كتبه المطبوعة قد خلت كلها من هذه الأبيات وانفرد بها صاحب " **اللمح** "، بل وجدت عبارات أضافها كذلك ونسبها للمعري، وليست موجودة في كتب أبي العلاء التي تحت أيدينا؛ بما لا يدع مجالا للشك أن كثيرا من مؤلفات المعري قد فُقِدَ شعرا ونثرا.

وقد رأيت أنَّ كلَّ شعر نُسِبَ إلى أبي العلاء، ولم نجده في دواوينه، أو في أحد مؤلفاته، أو في أحد من مظانِّ، أو مصادر أدبنا العربيِّ، فهو ومن نسبه إليه، ولا أملك إلا أن أقول إلا أن هذا الشعر لشيخ المعرَّة. مع بحث عن هذه الأبيات في مؤلفاته المطبوعة الأخرى، فما وجدناه فيها؛ أثبتناه، وما لم نجده؛ نثبت أنه غير موجود في مؤلفاته، ولا في غيرها مما تحت أيدينا من مصادر.

ما يهمنا هو ــ إلى جانب مؤلفاته ــ ديوانه "سِقْطُ الزَّنْدِ" الذي اشتمل على شعره أيام شبابه، ثم ديوانه "لزوم ما لا يلزم". أستند في هذا إلى:

ــ أن اللغة واستخداماتها لغة المعريِّ.

ــ أن الأوزان والتراكيب تمتُّ له بصلة.

ــ أن القوافي ــ ومنها لزوميات ــ هي قوافي المعري.

هذا من الناحية النقدية الفاحصة، أما كوني شاعرا، فإن إحساسي يغالبني بأنها لأبي العلاء المعريِّ. أضف إلى ذلك أنني لم أجد مصدرا آخر ينسب مثل هذه الأبيات لأي شاعر آخر غير المعري.

وفي قابل الأيام؛ إذا وضعنا تراثنا العربيَّ ــ وهذا ما يستحقه ــ في بؤرة اهتمامنا بصورة أكبر، فمن الممكن أن تخرج لنا كتب؛ إما أن تثبت أن هذا الشعر وغيره لأبي العلاء، أو أن تثبت الأيام عكس ما نظنُّ. كل ما في الأمر أننا عملنا حسب اجتهادنا، والله الموفِّقُ في كلِّ حال.

ـ المبحث الأول: بنية المعجم الشعري ودلالات اللغة.

يتميز المعجم الشعري لأبي العلاء المعري بالفرادة والواحدية من حيث استخدام المفردة في مكانها الذي يستحيل أن تنبو عنه، أو أن يمكن لأحد أن يضع كلمة أخرى عداها مكانها. هذه الكلمة التي يتفرد المعري بها؛ كلمةٌ حمَّالة أوجه، ولو أخذها القارئ العادي على محملها المباشر؛ ضاع كثير من جمالياتها؛ لذلك فهي تحتاج إلى ميزان من الذهب العقلي والمعرفي بدلالاتها المعجمية التي يقصد إليها المعري قصدًا؛ لأنها تحمل معنى آخر غير ذلك المعنى الذي يتوارد إلى أذهان العامة مباشرة.

فالشعر العربي والحضارة العربية بعد القرن الثالث للهجرة ـ حسب رأي الدكتور شوقي ضيف ـ قد عقمت، " ولا تأتي بجديد إلا اهتمامًا بالشكليات وتعقيدًا في شئون الحياة (٦)"، ويؤكد أن كل شيء يدل على:" ما أصاب العقل العربي من تصنُّع في الأداء ينحاز به عن الطرق الطبيعية في التعبير، سواء تعبير المعيشة أم تعبير التفكير(٧)"؛ لدرجة أن التصنُّع في كل شيء أصبح سمة حياة، وناموس المجتمع في كل شيء، " فالتجأ كثير من الأدباء إلى تعقيد التعبير فنونًا من التعقيد ... ويظهر أن ذلك كان يعدّ عند كتاب العصر وشعرائه الأفق الأعلى في البلاغة والفصاحة (٨)".

فأصبح التعقيد صنو كل شيء ورصيفه، وتأكيدا للتفوق والمهارة، وبلوغ الذرى في التمكن فحتى " موسيقى الشعر والنثر لم تسلم من هذا التكلف والتعقيد في الأداء، فنحن نجد المعري في لزومياته وفصوله وغاياته يتقيد في قوافيه وأسجاعه بحرفين أو ثلاثة، كأن الوسيلة الواحدة لا تكفي للتعبير في الأدب (٩)".

" **ولعل** مما يتصل بهذه الجوانب من التصعيب في الأداء ما شاع في هذه العصور من الألغاز والأحاجي؛ وقد روى صاحب اليتيمة طرفًا من هذا الجانب (١٠)"، ورغم هذا الرأي للدكتور شوقي ضيف، **فإن ابن سنان الخفاجي** يستحسن منه " ما كان ظاهره يدل على التناقض ... وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله في شعره كثيرا ومنه قوله:

وجبتُ سرابيًّا كأن إكامَـــهُ جـــــوارٍ ولكن ما لهنَّ نهود
تمجَّس حرباءُ الهجير وحوله رواهبُ خيطٍ والنهارُ يهودُ(١١)

فألغز بقوله جوارٍ عن الجواري من النساء وهو يريد كأنهن يجرين في السراب، وبقوله نهود عن نهود الجواري وهو يريد بنهود: نهوض، أي كأنهن يجرين

في السراب وما لهن على الحقيقة نهوض. وأراد بقوله تمجس الحرباء: أي صار لاستقباله الشمس كالمجوس التي تعبدها وتسجد لها، وجعل النعام الرواهب لسوادها، ويهود: يرجع، وهو يلغز بذلك عن اليهود لما ذكر المجوس والرواهب(١٢)".

فقد انتهج المعريُّ نهجا في كثير من شعره؛ لم ينتهجه غيره؛ إذ أخذ نفسه بما لا يلزم سواء في القافية، أو في استخدام الأحاجي والألغاز التي أكثر منها؛ ليدل على كل ما هو متناقض في أفعال الناس في الدين والحياة؛ حيث مهد له طريقا في الشعر يبسا قلما يرتاده غيره من الشعراء طيلة مسيرة الشعر العربي.

وبين أيدينا له ما يقرب من ثلاثمائة وعشرين بيتا من الشعر كلها تدور في فلك الأحاجي والألغاز في مخطوط نحققه لأول مرة في العالم، وليس هذا موضوع هذه الدراسة؛ إذ موضوعها ذلك الشعر الذي اكتشفناه له ــ

يقول أبو المعالي سعد بن علي الحظيري الورَّاق المعروف بدلال الكتب (ت٥٦٨هـ ــ ١١٧٢م) صاحب كتاب " لُمَح المُلَح " الذي قمت بدراسته وتحقيقه في الدكتوراه، والذي تضمَّن ما يربو على مئة وخمسة وأربعين بيتا جديدا؛ نسبها للمعري:

" وَقَالَ فى كِتَابِ جَامِعِ الأَوْزَانِ لَهُ:

تَجِيءُ يَهُودٌ بِتَوْرَاتِهَا وَفِيهَا مَوَاعِيدُ عُرْقُوبِهَا
وَإِسْحَاقُهَا جَرَّ إِسْحَاقَهَا وَقَائِبَةُ الطَّيْرِ مِنْ قُوبِهَا
وَرَقُّوا لأَمْلاكِهِمْ عَنْوَةً وَقَالُوا أَحَادِيثَ رَقُّوا بِهَا

إسحاقُها الأوَّل: إسحاقُ بن يعقُوب. **وإسحاقُها** الثَّانِي: إبعادُها من قولِهم: أَسْحَقَهُ الله أيْ: كذَّبُهُمْ عَلَى إسْحَاقَ جرَّ عليهم ما هُم فيهِ منَ البُعد عن سبيل الحقِّ. **والقائبةُ:** البَيْضَةُ، **وَالقُوبُ:** الفَرْخُ، **ورَقُّوا:** من الرِّقِّ، **ورقوا:** من الرُّقِيِّ فِي السُلَّمِ؛ أي: رفعوا بها(١٣).

وكتاب " جامع الأوزان والقوافي " مفقودٌ ــ فيما أعلم ــ حتى الآن، وقد ذكره كثير من مؤلفي كتب التراجم، ومنهم الخليل بن أيبك الصفدي في كتابه " الوافي بالوفيات " وغيره، وقد احتوى على كثير من نظم أبي العلاء في هذا المضمار.

ويبدو من هذه الأبيات المفقودة للمعري أسلوبه ومعجمه الشعري الذي يمثل مدخلا للولوج إلى فضاءات شعر أبي العلاء، من خلال " الكلمات التي تقوم بإدخال مفهوم القيمة إلى بعض المفردات في معجم الأديب، فتتحول بعد ذلك إلى علامات دالة تجسد

كائنا بشريا، وإلى عنصر تعبيري ملموس، يمكن الولوج منه إلى عالم الإنسان النفسي والفكري (١٤)"

نلاحظ الكلمات الدالة على معجم أبي العلاء الشعري، وبنيتها الدلالية التي يعمد إليها عمدا مثل: يهود، توراتها، مواعيد عرقوب، وإسحاق، ورقوا من الرق، ورقوا من الرقي في السلم.

" **لقد** دلت شواهد كثيرة عند المعري أنه كان يستخدم المقياس الأسلوبي المعجمي في تصحيحه لكثير من روايات الشعر العربي، ويعني ذلك عنده أن لكل شاعر معجما شعريا خاصا يتكون من كلمات ــ شاهدة ترمز إلى شخصية صاحبها ومن خلالها تجسد معجم عصره، ومن ثَمَّ تصبح العلاقة بين المعجم ومؤلفه علاقة لزومية أيقونية، وكثيرا ما اعتمد المعري على المعجم الشعري في تصحيح بعض الروايات أو ترجيح بعضها، وكذا في التثبُّت من البعض الآخر (١٥) ".

وهو هنا يمثل النسق الجمالي نفسه الذي نستخدمه في تحليل أبيات المعري، بل ونسبتها إليه؛ لا إلى غيره من معاصريه، أو حتى من أولئك الذين عمدوا إلى انتحال شعره، والزج به في دائرة الإلحاد والزندقة، بل والكفر في بعض الأحايين، فتارة ينسبون له ما يكتبونه هم للإيقاع به في هذه الدائرة الجهنمية، وتارة لا يفهمون شعره إلا فهما سطحيا؛ لا يستطيع الغوص في مكنونات أبي العلاء النفسية ولا الشعرية على حد سواء.

لقد اتخذ المعري منحيين في شعره بين سني طفولته وشبابه، وبين نضجه وهو رهين المحبسين، فشعره الأول يعمد فيه إلى أنه نص شعري يتلقاه الجمهور، فينفعلون معه وبه، وشعره الثاني الذي تعد لزومياته طرازا فريدا، ونموذجا واحديا في اللغة والتراكيب والأسلوب لم ينشغل فيه المعري بالمتلقي المستمع، بل كان شغله الشاغل بالمتلقي الواعي القارئ الذي يستنبط المعنى، ويفهم ما وراء النص، وما بين سطوره، وما يحتلبه من بين ألفاظه، وما يجتنيه من عسل مصفى؛ يستخرجه شيخ المعرة من اللغة المتفردة التي مكنته من صياغة شعره بهذه الطريقة التي لم يبلغ مبلغه فيها أحد حتى عصرنا الحديث؛ رغم أن هناك من نهجوا نهجه في لزومياته، ومنهم: رب السيف والقلم محمود سامي البارودي، وأحمد مخيمر، والراحل الكريم شيخنا الدكتور عبداللطيف عبدالحليم " أبو همام "، وغيرهم.

إنَّ أبا العلاء بما أوتي من بلاغة لم يكن فيلسوف الشعراء، ولا شاعر الفلاسفة؛ بل كان زاهدا في متع الدنيا، وزينتها ومباهجها؛ يميل إلى شعر الحكمة بما فرضته عليه عزلته التي اختارها عن الناس. وهو في نظر آخرين؛ ذلك الرجل الضرير الذي يمتلك " شاعرية حية، وله فلسفة بارزة مؤثرة، تجذبنا إلى خرق ما أسدله القدر على تينك العينين من حجاب كثيف، والتطلع إلى ما تدافع بين جوانح تلك النفس من رغبة ونفور، وأمل وقنوط"(١٦).

بل إنه لولا تلك الإهانة التي تعرض لها أبو العلاء في مجلس الشريف المرتضى ببغداد؛ ما كان لنا أن نجد ذلك الرجل الذي أفرزته هذه المحنة بكل هذا الإبداع، وكل هذا التجلي والفرادة والواحدية في شعره ونثره، فقد أمرهم المرتضى بأن يجروه من قدميه ويخرجوه من مجلسه؛ بعد أن فهم إهانة المعري له، ولولا ما لاقاه من الحسد والحقد من بعض مناظريه إبان إقامته فيها، وقراره بالعودة إلى معرة النعمان بعد أن علم بفقد أمه.

لقد رأى بعض الباحثين في " أبي العلاء ملحدا كافرا، كما رأى فيه غيرهم مسلما سنيا، وغيرهم شاكا حائرا. أما نحن فنرى أن أبا العلاء ليس بالكافر الملحد، ولا بالمؤمن المسلم، ولا بالشاك الحائر، وإنما تلك حالات نفسية كانت تتناوب شخصيته الحساسة، فتتكيف بها آراؤه الفلسفية، ويغتنم تشاؤمه المعروف هذه الفرصة فيشك في إيمان معاصريه، ثم لا يلبث أن يشك في شكه هذا، فيسكن إلى الإيمان، ثم يؤلمه ما يرى من رياء بعض الفقهاء في زمانه، ويؤثر فيه ما يتحقق من فساد الأخلاق في محيطه، فيعود إلى نقطته الأولى، وهكذا دواليك، وعليه يفهم الباحث كيف اتصل مريدوه إلى استنتاج تلك النتائج المتناقضة، والآراء المتعاكسة بتأويلهم أبيات اللزوميات تأويلا متطرفا (١٧)".

إنه ذلك الرجل الذي يقدم لنا إبداعا غاية الروعة؛ غاية التناقض. إبداعا يدل على تمكن في كل شيء حتى موسيقى الكلمة، وترنيمة اللفظ التي انماز بها شعر المعري، فبنية المعجم الشعري عنده تنبع من هذه الموسيقى التي نجدها في شعره مترامية الأطراف، متقاربة المآخذ، متناقضة المعاني؛ إنه أبو العلاء الذي انبرى في لزومياته إلى هذا التعقيد والإعنات لنفسه ولغيره ممن يريدون أن ينتهجوا نهجه، فتعب حيا وميتا، وأتعب كل من أتى خلفه، وأراد أن يسير في هذا الدرب الملزم لما لا يلزم.

ونقدم هنا نموذجا آخر للزوم أبي العلاء ما لا يلزم ليس في القافية فحسب، بل وفي اللغة أيضا؛ إذ يقول:

أَجَالُوا تَفَكُّرَهُمْ فِى اللِّقَـــاءِ وَأَرْهَقَت الحَـــرْبُ جَالُوتَهَا
أَطَالُـــوا تَمَائِـــمَ أَطْفَالِهِـــمْ وَمَا تُخْلِـــدُ الأَرْضُ طَالُوتَهَا
وَهَـــارُوا تَوَابِعَهُـــمْ أَنْ تَرُو مَ بَابِـــــلَ تَطْلُبُ هَارُوتَهَا
وَمَـــارُوا تَخَـــالُ قِيَانًا لَهُـــمْ نَـــــوَاسِكَ تَهْجُرُ مَارُوتَهَا
وَتَابُـــوا تَظُنُّهُمُ لِلخُشُـــوعِ طَوَائِفَ تُعْظِمُ تَابُوتَهَـــــا
وَطَاغُوا تِهَامَةَ فِيمَا مَضَى أَجَلُّوا مِنَ الغَـــيِّ طَاغُوتَهَـــا
وَبَاعُوا تَعَبُّدَهُمْ فِى العِرَاقِ وَزَارُوا مَعَ الشُّعْثِ بَاعُوتَهَا
فَيَاقُوتُهُمْ مِنْ نَبَاتِ البِلاد وَإِنْ نَالَتِ الكَـــفُّ يَاقُوتَهَـــا
فَحَانُـــوا تُؤَامًا وَهُمْ يَحْمِلُو نَ رَاحَ السُّقَاةِ وَحَانُوتَهَـــا
وَنَاسُوا تَيَقُّنَهُـــمْ لِلمَعَـــادِ وَهَابُوا المُلُوكَ وَنَاسُوتَهَـــا

يقَالَ: هاره بكذا: إذا رماه به، وهو من العيب. **ومـــاروا إلـــى:** ذهبـــوا وجـــاءوا. **وتابوتها:** أي: تابوت السكينة. **والباغوتُ:** بيت كان في الحيـرة؛ تـزوره النـصارى، والأول مُضافٌ. **وحانوا:** من الحَين. **وتؤامًا:** اثنين اثنين. **وناسوا:** جمـع نـاس مـن المنسيات. وقوله: **فياقوتهم:** يا للنداء، **وقوتهم:** ابتداء، **والمعنى:** فيا قوم قوتهم(١٨).

إذا كنا نرى **أن الصنعة أن تخفي الصنعة،** فهذه اللزومية العلائيـة؛ خرجـت مطبوعة رائقة صافية؛ لا ترى فيها عوجـا ولا أمتـا، فـالكلام " يحـسن بـسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعـه، ولـين مقاطعـه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديه، وموافقة مآخيره لمباديه، مع قلّة ضروراته، بل عدمها أصلا، حتى لا يكون لها فى الألفاظ أثر؛ فتجد المنظوم مثـل المنثور في سهولة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصـفه وتأليفـه؛ وكمـال صـوغه وتركيبه (١٩)".

فالمعاني المخترعة لا تتأتى إلا للفذ من الأدباء، والواحد من الـشعراء؛ لأنهـا تحتاج كثيرا من الموهبة التي لا يمنحها الله إلا لمن يـصطفيه مـن عبـاده، فالمعـاني المخترعة لا تتقيد بقيد، أو يفتح إليها طريق تسلك، وهي تأتي من فـيض إلهـي بغيـر تعليم؟، ولهذا اختص بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض، والذي يخص بها يكـون

فذا واحدًا يوجد في الزمن المتطاول، ولما مارست أنا هذا الفن –أعني في الكتابة– وقلبته ظهرًا لبطن، وفتشت عن دفائنه وخباياه، وأكثرت من تحصيل مواده والأسباب الموصلة إلى الغاية منه، سنح لي في شيء من المعاني المخترعة طريقٌ سلكته (٢٠)".

وفي وجازة غير مخلة؛ يحصر أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الحظيري الورَّاق المعروف بدلاَّل الكتب (ت ٥٦٨ه ــ ١١٧٢م)؛ ذلك الرجل الذي يكشف لنا للمرة الأولى ــ فيما أعلم ــ عن خبيئة المعري، وكنزه المفقود في ثنايا كتابه " **لمح الملح** " الذي حققناه عن مئة وخمسة وأربعين بيتا للمعري ليست موجودة عند غيره؛ يحصر أنواع الجناس بقوله:" **وَأَجْنَاسُ التَّجْنِيسِ خَمْسَةٌ: المُطْلَقُ، وَالمُصَحَّفُ، وَالنَّاقِصُ، وَالمَقْلُوبُ، وَالمُبْدَلُ.** وَلَهَا أَنْوَاعٌ لِحَصْرِهَا امْتِنَاعٌ: **فَأَمَّا المُطْلَقُ:** فَهُوَ **تَشَابُهُ اللَّفْظَيْنِ ــ عَدَدَ حُرُوفٍ وَتَرْتِيبَ تَأْلِيفٍ ــ وَتَقَابُلُهُمَا خَطًّا، وَتَمَاثُلُهُمَا نَقْطًا.** كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ:

نَدِيمَتِي جَارِيَةٌ سَاقِيَةْ وَنُزْهَتِي سَاقِيَةٌ جَارِيَةْ

أَلا تَرَى جَارِيَةً وَجَارِيَةً، وَسَاقِيَةً وَسَاقِيَةً، وَكَيْفَ تَمَاثَلَتْ مَبَانِيهَا، وَتَبَايَنَتْ مَعَانِيهَا(٢١)". وما يهمنا منه؛ هو النوع الأول فقط الذي استخدمه أبو العلاء في لزوميته السابقة.

ذلك أبو العلاء المعري المتفرِّدُ في لغته، المتمكِّنُ من أساليبه، المتميز بتراكيبه التي لا تخفى على أحد؛ تبرز سمات معجمه الشعري ودلالاته في تلك اللزومية، فإننا لو نظرنا إلى هذه الأبيات العشرة التي جاءت سلكا واحدا، وسبيكة خالصة؛ نجد موافقة أول كلمة في كل بيت مع الكلمة التي تضمنتها القافية والتي ألزم فيها أبو العلاء نفسه بما لا يلزم؛ **حيث ألزم نفسه بأربعة حروف متتالية وهي:" الواو والتاء والهاء وألف الإطلاق،** مع اختلاف الدلالات والمعاني بين الكلمة الأولى، والكلمة الآخرة؛ إذ إن كلا منهما على النقيض تماما من بعضهما البعض في كل بيت، وهذا ما أطلق عليه الحظيري اسم "**الجناس المطلق**" الذي تتشابه فيه الكلمة مع أختها حرفا ونقطا، وتختلفان دلالة ومعنى، وإنك لو نظرت إلى تلك الكلمات التي استخدمت في هذه اللزومية؛ لوجدتها في كل بيت من أبيات اللزومية العشرة، فتجد:

في البيت الأول:" أجالوا ... جالوتها "

في البيت الثاني:" أطالوا ... طالوتها "

في البيت الثالث:" وهاروا ... هاروتها "

في البيت الرابع:" وماروا ... ماروتها "

في البيت الخامس:" وتابوا ... تابوتها "

في البيت السادس:" وطاغوا ... طاغوتها "

في البيت السابع:" وباعوا ... باعوتها "

في البيت الثامن:" فيا قوتهم ... ياقوتها "

في البيت التاسع:" فحانوا ... وحانوتها "

في البيت العاشر:" وناسوا ... ناسوتها ".

وصاحب هذه الصناعة يحتاج إلى ثلاثة أشياء:" الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك اللآلئ المبدَّدَة، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم. الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلَّا يجيء الكلام قلقًا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها. الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه(٢٢)".

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المعري اهتبل اللغة اهتبالا، واقتنص دررها، وسبكها، ونظمها في عِقْدٍ فَرِيد، وَصَوْغٍ لا يُجاريه فيه أحدٌ من السلاسة والعذوبة اللتين تجعلان القارئ مشدوها متأمِّلاً؛ إذ كيف فعل المعري ذلك دون أن نجد صعوبة أو قلقا في حرف واحد، أو كلمة واحدة في تلك البُنى والكلمات التي استخدمها في هذه اللزومية.

كانت اللغة طعام أبي العلاء الأثير، وشرابه المفضَّل، فأكلها، وشربها، واهتضمها هضما، وبنى منها بنيانه الذي ارتضى، فخرجت منه قصائده وكلماته عفو الخاطر، وصيد اللؤلؤ، من أصدافها التي اختزنها في محيطه، وصادها من بحره الذي صنع سواحله، وجاب مراميه دون عَنَتٍ، أو مشقة.

ـ المبحث الثاني: البنية الدلالية في لغة المعري واستخدامات المعاجم لها.

وقد استخدم أبو العلاء المعري مفرداته متعددة المعاني والبُنَى الدلالية لها، فكان أكثر غوصا، وأكثر براعة في استخدامها في تراكيبه وأساليبه الإبداعية منها في استخدامات هذه المعاجم. ونكاد نجزم أنَّ كل كلمة صاغها المعري في كثير من شعره؛ خاصة لزومياته؛ تكاد ترمي إلى مرمى غير الذي عهده الناس في أشعاره الأولى التي نظمها في أول حياته والتي تحمل عنوان:" **سقْط الزَّنْد** "، ففي أشعاره الأولى كان ينشغل أيما انشغال بالمتلقي الذي سيلقي عليه قصيدته؛ مهتما بأن تلقى استحسانه، فيتمايل طربا عندما ينشد قصيدته؛ إذ كان المتلقي ينال الاهتمام الأكبر لدى شعراء القصيدة العربية التي تلتزم " عمود الشعر"؛ ذلك المصطلح الذي أطلق الآمدي في موازنته له العنان في تاريخ النقد العربي، فـ"**عَمُودُ الشِّعْرِ" هو: الشِّعْرُ الْقَائِمُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَالأَوْزَانِ الشِّعْرِيَّةِ الْمَوْرُوثَةِ عَنِ الْعَرَبِ**(٢٣)".

والعصر الجاهليُّ " أول عصور التاريخ العربي، ونحن لا نستطيع أن نعرف قومنا في مراحل تطورهم، ومواطن انتشارهم، إذا لم نعرفهم في موطنهم الأصيل وفي عصرهم الأول. ثم إن الشعر الجاهلي هو الأصل الذي انبثق منه الشعر العربي في سائر عصوره، وهو الذي أرسى عمود الشعر، وثبت نظام القصيدة، وصاغ المعجم الشعري العربي عامة؛ ولست أفهم كيف نستطيع أن نحكم على ما في شعر العصور الإسلامية من تطور وتجديد إذا لم نصل من أمر الشعر الجاهلي إلى مفصل نطمئن عنده(٢٤)".

لقد سبق المعريَّ كثيرون غيره في مضمار التجديد في القصيدة العربية، وعلى رأسهم بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس الحسن بن هانئ، وبلغ التجديد ذروته على يدي أبي تمام؛ **وهو** " عَلَمٌ من أعلام الشعر العربي؛ يُعَدُّ بحقٍ أستاذ الطبقة الثالثة من الشعراء الحضريين المولَّدين بعد بشار وأبي نواس. سُلِّمَتْ له الزعامة في عصره، ولم يزاحمه فيها أحد في عصره مزاحمة جدية، فقد انفرد بالزعامة حتى اعترف له خصومه بذلك. شغل النقاد والأدباء والشعراء واللغويين والبلاغيين، شغل كل الطوائف بشعره، فقد فاجأهم بما لم يتوقعوا؛ فبالغ في التعمق في المعاني، والغوص على الفكرة، وأكثر من صور البديع إلى درجة الإسراف، وتجنب عمود الشعر العربي

الذي كان القدوة التي تقتدى بها، وخرج على قواعد اللغة العربية، ونحوها وصرفها؛ مما كان سببا في إهمال الكثير من شعره(٢٥)".

لم يذهب أبو تمام ذلك المذهب، ولم يتخذ ذلك المنحى في الاتجاه نحو النزعة التجديدية غير " ما وجده في الشعراء قبله من جمود وثبات؛ فقد حبس الشعراء أنفسهم ــ قبله ــ في تفاصيل الصور والمعاني من وصف للدمن والأثافي والوحوش، ومحو الرياح للآثار، فضيقوا على أنفسهم حتى لم يعد أمامهم مجال للتجديد غير التجويد الفني؛ وحتى جاء شعرهم أدل على المهارة في الصياغة منه على أصالة الطبع والعمق في الإنسانية(٢٦)".

كان الدافع للتجديد؛ هو حالة الملل والسأم التي أصابت القصيدة العربية في مقتل، فانصرف شعراؤها إلى التنميق والتزيين والبهرجة اللفظية في إطار من الوزن والقافية؛ يتصدر ذلك المشهد، وفي قمته " البحتري "؛ ينشغلون بالإنشاد إمتاعا للمتلقي على حساب جودة القصيدة والخروج بها من إطارها التقليدي إلى أطرٍ أُخَر؛ تجعلها أكثر تجدُّدا وتميُّزا، فأخذ كثير من الشعراء اتجاه التجديد والتطوير في القصيدة العربية " بدافع الرغبة إلى الجديد، وليس تخلُّصًا من قسوة عمود الشعر وصرامته، وإلا ما ذهب "المعري" وغيره إلى الزيادة في القيود فالتزم في القافية ما لا يلزمه العروض به، وآثرها في "لزومياته" وكذلك في "فصوله وغاياته"، حتى لكأنها وسائل للأداء كلما ازدادت؛ أعانت الشاعر على رسم صورته وتأدية غرضه(٢٧)".

نعم؛ لقد ألزم أبو العلاء المعري نفسه بما لا يلزم؛ ومع ذلك، فإن هذا الإلزام لم يمثل عَنَتًا ولا رَهَقًا له؛ بل كان يزيد القصيدة جمالا على جمالها، وبهاءً على بهائها، ورونقا على رونقها. لقد اهتم المعري في سنيِّ حياته الأولى في ديوانه " سقط الزند " الذي يمثل مرحلة عمرية متقدمة من حياته بالمتلقي؛ أكثر من اهتمامه بالشعر، وخير دليل على ذلك؛ أنه أخذ في مرحلة متأخرة من عمره يعيد النظر في أبيات هذا الديوان كلما سأله سائل، يمكن أن يكون قد فهم المعنى المراد على غير وجهته، أو حين يسأله تلميذه الخطيب التبريزي عما يختلط، أو يلتبس عليه فهمه، ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل تعداه إلى لزومياته عندما اتخذها بعضهم ذريعة للطعن في دينه، واتهامه بالزندقة تارة، وبالخروج عن الملة تارة أخرى.

اضطر أبو العلاء إلى شرح وتفسير نصوصه هو قبل أن " يتصدى لنصوص غيره من الأدباء والشعراء، وفي هذا الشأن أوردت كتب التراجم مجموعة من الآثار الأدبية التي سلك فيها المعري مسلك الشرح والتفسير. منها: كتاب " راحة اللزوم " الذي يشرح فيه ما في كتاب لزوم ما لا يلزم من الغريب، وكتاب " ضوء السقط " وفيه تفسير غريب " سقط الزند "، وكتاب " الراحلة " وهو في تفسير كتاب " لزوم ما لا يلزم "، بالإضافة إلى كتاب " زجر النابح " و " ونجر الزاجر "، وهما كتابان ردَّ فيهما المعري على من طعن عليه في أبيات من لزوم ما لا يلزم(٢٨)".

وقد وضع المعري في مرحلته الشعرية الأولى ــ إذا استطعنا تقسيم حياته قسمين ــ في ديوانه " سقط الزند " وسابقوه؛ المتلقي في الوجهة المقابلة للشاعر، حتى أصبح الشعر العربي يدور في فلك عقدة القراءة والتلقي التي " تأخذ في اعتبارها توقعات المتلقين وردود أفعالهم؛ بل إنها تتمثل صورة نموذجية لهؤلاء، فتضمِّنها بنياتها النصية، ويرتبط هذا المتلقي بأفق انتظار. له مقاييس جمالية وأعراف فنية تتراكم عبر أزمنة تاريخية متعاقبة، وهذا يعني أن تكوين النص الفني يظل مرتبطا باستجابة المتلقي(٢٩)".

وهذه هي المرحلة التقليدية في شعر المعري، والتي تختلف اختلافا كاملا عن شعره في المرحلة الثانية من حياته، والتي اتخذت بعدا آخر، وإطارا جماليا معرفيا؛ كان قد ظهر في بعض قصائد " سقط الزند "، وما لبث أن ظهر جليا في " لزوم ما لا يلزم ". تلك المرحلة التي تعمد إلى " تقديم حقائق معرفية في الشعر بدل الاهتمام بالعبارة المنطوقة، وما تخلفه من نشوة وطرب. وبهذا تتغير وظيفة الشعر عما كانت عليه في النمط الأول؛ حيث يصبح الشعر لعبة معرفية تستحضر المشاعر وعلاقاتها الخبيئة إلى حال الوعي، وذلك بتسميتها بأسمائها، ويصبح الشاعر كمن يصنع عالما فنيا تخييليا يستقل بكائناته وأحداثه وشخوصه الفنية(٣٠)".

اتجه شعر المعري في مرحلته الثانية ــ خاصة في لزومياته ــ نحو متلق جديد ناضج متميز عميق في تفكيره " يحظى بنصيب من الفلسفة والتأمل، فأصبح الشعر عنده يمر عبر منافذ الفكر والعقل بدل مروره من منفذ الوجدان وحده(٣١)".

أصبح شعر المعري ــ حسبما يرى ابن السيد البطليوسي ــ " قوي المباني، خفي المعاني؛ لأن قائله سلك به مسلك الشعراء، وضمنه نكتا من النحل والآراء، وأراد أن

يري معرفته بالأخبار والأنساب، وتصرفه في جميع أنواع الأدب، فأكثر فيه من الغريب والبديع، ومزج المطبوع بالمصنوع، فتعقدت ألفاظه، وبعدت أغراضه(٣٢)".

ولأن كلمة واحدة كانت تمثل حقلا دلاليا عند المعري؛ يثبت من خلالها أن هذا البيت الشعري، أو أن هذه القصيدة للشاعر الفلاني، وليست لغيره من خلال معجمه الشعري، فقد " دلت شواهد كثيرة عند المعري أنه كان يستخدم المقياس الأسلوبي المعجمي في تصحيحه لكثير من روايات الشعر العربي، ويعني ذلك عنده أن لكل شاعر معجما شعريا خاصا يتكون من كلمات شاهدة ترمز إلى شخصية صاحبها، ومن خلالها تجسد معجم عصره، ومن ثم تصبح العلاقة بين المعجم ومؤلفه علاقة لزومية أيقونية(٣٣)".

وبالقياس نفسه، فإن الشعر الذي بين أيدينا يتسنى لنا أن نؤكد أن القصائد والمقطعات والأبيات التي اكتشفناها هي لأبي العلاء المعري دون سواه إلا إذا ظهر ما يثبت عكس ذلك؛ **لكن السؤال هنا**؛ هل كان دافع أبي العلاء المعري في التغيير والتجديد والتطوير في القصيدة؛ هو التجديد فقط؛ أم أنه اضطر اضطرارا إلى هذا الاتجاه من استخدام الرمز والتخييل والمجاز للخروج والتحايل على أولئك المتربصين به، والذين يؤولون شعره حسب أهوائهم، ولأغراض في نفوسهم، فيتهمونه بالزندقة تارة، أو يخرجونه عن الملة تارة أخرى؟!.

أعتقد أن الجانبين معًا هما اللذان دفعا أبا العلاء كي يتخذ هذا المنحى في شعره الجديد متَّكأً له في اتجاه التطوير والتجديد، والتخلص من خصومه الأغبياء الذين يترصدونه ويتصيدون له، وبالنظر إلى لزوميته التي بين أيدينا؛

أَجَالُوا تَفَكُّرَهُمْ فِى اللِّقَاءِ وَأَرْهَقَت الحَرْبُ جَالُوتَهَا
أَطَالُوا تَمَائِمَ أَطْفَالِهِمْ وَمَا تُخْلِدُ الأَرْضُ طَالُوتَهَا
وَهَارُوا تَوَابِعَهُمْ أَنْ تَرُو مَ بَابِلَ تَطْلُبُ هَارُوتَهَا
وَمَارُوا تَخَالُ قِيَانًا لَهُمْ نَوَاسِكَ تَهْجُرُ مَارُوتَهَا
وَتَابُوا تَظُنُّهُمُ لِلخُشُوعِ طَوَائِفَ تُعْظِمُ تَابُوتَهَا
وَطَاغُوا تِهَامَةَ فِيمَا مَضَى أَجَلُّوا مِنَ الغَيِّ طَاغُوتَهَا
وَبَاعُوا تَعَبُّدَهُمْ فِى العِرَاقِ وَزَارُوا مَعَ الشُّعْثِ بَاعُوتَهَا
فَيَاقُوتُهُمْ مِنْ نَبَاتِ البِلادِ وَإِنْ نَالَتِ الكَفُّ يَاقُوتَهَا

فَحَانُـــوا تُؤَامًا وَهُمْ يَحْمِلُو نَ رَاحَ السُّقَاةِ وَحَانُوتَهَا
وَنَاسُـــوا تَيَقُّنَهُمْ للمَعَـــادِ وَهَابُوا المُلُوكَ وَنَاسُوتَهَا

نجد شيخ المعرة، وقد استخدم كلمة " **أجالوا** " التي تحمل معنى الظن؛ فـي اتجـاه الحيرة والشك والتردد، وفي اللسان:" **والإجالة: الإدارة. يقال في الميسر أجل السهام وأجال السهام بين القوم حركها وأفضى بها في القسمة ويقال أجالوا الرأي فيما بينهم**(٣٤)"؛ إذ يتمثل في هذا البيت صراع النفس في حيرتها وظنها واتهامها بالتقصير، وبين جالوت عند ملاقاة طالوت، وقتل سيدنا داوود ــ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ــ له، من اعتمال الفكر والقلق والظن؛ إلى اليقين والنصر.

ويربط أبو العلاء في البيت الثاني بين إطالة الناس لتمائم أطفالهم؛ ظنا منهم أنها ستكون سببا في إطالة أعمارهم، وبين طالوت المذكور في القرآن الكريم، في قوله تعالى:" **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً**(٣٥)"، **وهو** " راعي حُمُرٍ وكان فقيرا ليس عنده مال، وخرج من قريته يطلب حمارين له أضلهما فلما أدركه الليل ولم يجدهما وتمادى به الطلب فدخل مدينة بني إسرائيل واضطره الجوع فأوى إلى أشمويل وكان مأوى المساكين فأوحى الله عز وجل إلى أشمويل أني قد بعثت إليك هذا الذي ينشد الحمار ملكا على بني إسرائيل فقال لهم إن الله عز وجل قد بعث لكم ملكا طوله هذه القصبة فاطلبوه حيث ما كان من أسباط بني إسرائيل فهو عليكم وكان طول القصبة ثماني أذرع فلما دفعها إليهم فلم يعذروا في الطلب ولم يبالغوا وقالوا لنبيهم لم نجد هذا فقال لهم نبيهم هو طالوت صاحب الحمار فقالوا أين هو قال عهدي به البارحة فلما وجدوه قاسوه بالقصبة وكان قدرها قالوا له من أي سبط أنت قال من سبط ابن يامين فنفروا من ذلك وكرهوه(٣٦)"؛ إذ يسخر أبو العلاء منهم لأن التمائم لم تغن عن أطفالهم شيئا، ولم تدفع عنهم الموت؛ فكذلك لم يُغْنِ طول " طالوت " الذي يبلغ ثمانية أذرع؛ شيئا، ولم يدفع عنه الموت أيضا.

ويواصل أبو العلاء استخدام الكلمات التي توحي بالشك والريبة والاتهام، فيستخدم كلمة " هاروا " التي جاء من بين معانيها في المعاجم " **هارَه على الشَّيْءِ حملَه عليه وأَراده به منَ المَجاز هَارَ القَومَ يَهُورهم هَوْراً إذا قتلَهم وكَبَّ بعضَهم على بعض كما يَنْهار الجُرُفُ**(٣٧)"، فقد أرغموا الذين يتبعونهم على الخروج كي يطلبوا " **هاروت** " الوارد ذكره في القرآن الكريم؛ هو و" **ماروت** " في قوله تعالى:" **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**

وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ(٣٨)"؛ وهو يرمز هنا إلى ذلك الوهم الذي يدفعونهم نحوه، وهو " **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً(٣٩)**".

ولا يقتصر الأمر على إلقائهم في التهلكة؛ بل يتعداه إلى تصوير الشيء على غير حقيقته كما يفعل السحرة الكذبة، مماراة وكذبا وخداعا من قوله تعالى:" **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(٤٠)**"، فهم من شدة الاضطراب؛ يرون القيان، " **والقينة: الأمة المغنية تكون من التزيين لأنها كانت تزين(٤١)**"، يحسبونهن ناسكات عابدات؛ قد هجروا " **ماروت** " وسحره وشره؛ بل يظنون أنهم تابوا، وتحسبهم من شدة خشوعهم؛ أنهم في رهبة وأمن وسكينة؛ لقوله تعالى:" **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلاَئِكَةُ(٤٢)**". **وأشرفوا** على جبال تهامة، فآمنوا بالضلال، وتركوا عبادة الله، وعبدوا الطاغوت أصناما ورجالا، و" **الباغوث** ": **أعجمي معرب عيد للنصارى** "، " **والباغوت** ": **اسم موضع (٤٣)**".

وإذا كانت " **العبودية حرفة، وحانوتها العزلة(٤٤)**"، فإن أبا العلاء يجمع في هذا البيت بين الحين، وقرار العزلة، ".

وناسوا " من النسيان، و" **اللاهوت الخالق، والناسوت المخلوق، وربما يطلق الأول على الروح والثاني على البدن، وربما يطلق الأول أيضا على العالم العلوي والثاني على العالم السفلي، وعلى السبب والمسبب، وعلى الجن والإنس(٤٥)**"

إن أبا العلاء تنقل بنا في هذه اللزومية بين معارفه اللغوية، وعلومه الإنسانية، ومعتقده وفكره في نفسه وفيمن حوله، بكلمات تتنقل بين الاضطراب والحيرة والقلق ورمي التهم والظنون، والشك الذي لازمه طيلة حياته، **وإذا** كان المعري قد خلص في " **رسالة الغفران** " إلى نسبة أشعار إلى شعراء؛ كان يدور الشك حول نسبتها، أو كانت تنسب تارة لشاعر، وأخرى لغيره؛ فإن أبا العلاء كان يعتمد على المعجم الشعري وبنيته الدلالية التي ينماز بها شاعر على شاعر آخر غيره، بل وينفي نسبة قصائد إلى شعراء بأعيانهم، وينسبها إلى شعراء آخرين؛ ذلك أنه كان ينظر إلى معجم الشاعر وتراكيبه الأسلوبية التي لا يراها لسواه.

وإذا نظرنا إلى هذه اللزومية فسنجد كلماتها؛ هي تلك الكلمات التي تؤكد ــ في غير ريب، ودونما شك ــ نسبتها إلى أبي العلاء المعري بما تتميز به من فرادة في اللغة والتراكيب التي **فكلمات مثل: جالوت، وطالوت، واللاهوت، والناسوت، وهاروت وماروت، والطاغوت**؛ بل وألفاظ تشير إلى الظن والشك والتهم مثل:" **أجالوا، وهاروا، وماروا** " **كل هذه كلمات دوالٌّ على أنها امتدادٌ لذلك المعجم الشعري الذي اختص به أبو العلاء نفسه دون سواه من الشك والظن والتهم والتردد والتشاؤم في كل شيء حسب حالاته النفسية التي تعتمل في نفسه، وتقلق روحه القلِقة الحساسة التي أفرزت لنا عالما واحديا متفردا؛ لشاعر فذٍّ، وأديب يندر أن تجود العربية بمثله.**

بل وبما تحمله من صور وخيال يحلق بنا في سماء اللغة وشتى المعارف وصنوف الأدب؛ ذلك الذي أنكره عليه عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد الذي " ينفي، أو يجتهد أن ينفي عمل الخيال الأكبر " **في كتابه مطالعات في الكتب والحياة؛ تحت عنوان** " **الخيال في رسالة الغفران** "؛ **ولا يلبث** عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أن يرد على العقاد؛ منتصرا لصديقه ورصيفه الذي كان يضعه نصب عينيه منذ صباه، وإلى أن بلغ من العلم مبلغه؛ فيذهب طه حسين إلى غير ما ذهب له العقاد، فيؤكد أن:" **حظ أبي العلاء من الخيال عظيم جدا، قيم جدا، خليق بالخلود؛ لأنه الخيال الخصب المنتج**".

لكنها طبيعة أبي العلاء التي ينماز بها من " الخيال الدقيق الحساس الذي يجعل من معلومة باهتة؛ صورة حية جلية ... فخياله الدقيق الحساس نفخ الحياة والحركة في كل ما اكتسبه من المعارف السابقة(٤٦)"، فملأ الدنيا، وشغل الناس في حياته وبعد مماته؛ رغم أننا نعتقد أن أبا العلاء المعري مازال حيا بين ظهرانينا بكل ذلك الاهتمام الذي يوليه الباحثون والدارسون له شخصا وشعرا وأدبا تفرَّد به عمن سواه.

خاتمة الدراسة

تخلص هذه الدراسة بعد تحليل شواهد شعرية مما اكتشفناه لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري التنوخي؛ إلى أن هذه اللغة، ومن خلال البنيتين الدلالية والمعجمية لألفاظها وكلماتها، والأسلوب الذي صيغت فيه؛ خاصة تلك اللزومية التي جاءت على بحر المتقارب، وألزم فيها أبو العلاء نفسه بما لا يلزم كعادته وديدنه في كثير من شعره؛ وتراكيبه؛ أنها له لغةً وموسيقى وقافيةً ونسبًا.

بل؛ تفصل لنا بين حياتين للمعري. يبدو كل شطر منهما جليا واضحا: شطر يتوجه فيه إلى المتلقي مباشرة؛ إذ إنه وضعه في حسبانه وهو ينشئ قصائده وأشعاره قصد التطريب، وكسب ذلك المتلقي كعادة كثير من الشعراء، ويمثله في كثير منه ديوانه " **سقْط الزَّنْد** ". ويضح لنا في شطره الآخر من حياته في " **لزوم ما لا يلزم** " أنه أخذ منحى جديدا في كتاباته الإبداعية شعرا ونثرا، يعمد فيه إلى قارئ؛ له عقلية خاصة وثقافة معرفية غير قليلة، وإن التزم فيها ما لا يلزم من القوافي واستخدام البحور والأوزان غير المطروقة.

ونأمل في قابل الأيام أن يعيننا الله على استكمال ما بدأناه بهذه الدراسة؛ على كشف كثير من شعر شيخ معرة النعمان الذي بين أيدينا، وإخراجه في أبهى حلة، وأجمل صورة للمهتمين بأبي العلاء المعري الشاعر، والذي يكاد يشكل ديوانا جديدا له؛ إذ يربو ما اكتشفناه له على السبعمائة بيت، أو يزيد؛ خمسمائة منها تقريبا تقع في مخطوطات لم تحقق من قبل.

واللهَ أسأل أن تكون هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم، وأن يكون لي منه ــ سبحانه وتعالى ــ أجْرَا المصيبِ، وإن كان فيها من خطأ، فإنني أرجو الله أن يكون لي منها أجْرُ الذي اجتهد، فأخطأ.

الهوامش:

(١) أبجد العلوم ٣/ ٧٢ و٧٣، البداية والنهاية ٧٢/١٢، تاريخ بغداد٢٤٠/٤، شذرات الذهب٢٨٠/٢ و٢٨١، النجوم الزاهرة٦١/٥، وفيات الأعيان١١٣/١ وما بعدها.

(٢) لسان الميزان ٢٠٦/١، والبيتان الثاني والثالث من معجم الأدباء١١٦/١.

(٣) البيت من مجزوء الكامل في ترجمته في البداية والنهاية٧٥/١٢، شذرات الذهب٢٨١/٣، تاريخ الإسلام٢٠٩/٣٠، تاريخ ابن الوردي١/ ٣٤٧، السلوك في طبقات العلماء والملوك للكندي٢٥٨/١، سير أعلام النبلاء٣٦/١٨، وفيات الأعيان١١٥/١، بغية الوعاة٣١٧/١، معاهد التنصيص١٤٤/١.

(٤) دراسة في مصادر الأدب ٦٧ و٦٨، الدكتور الطاهر مكي، ط٧، دار المعارف القاهرة ١٩٩٣.

(٥) السابق/ ٦٨.

(٦) الفن ومذاهبه في الشعر العربي/ ٢٧٧.

(٧) السابق/٢٧٩.

(٨) السابق/٢٨٠.

(٩) السابق ٢٨١.

(١٠) السابق/ ٢٨١.

(١١) البيتان من الطويل في ديوان أبي العلاء المعري١١٨٥/١.

(١٢) سر الفصاحة/٢٢٧/٢٢٦.

(١٣) كتاب " لمح الملح " للحظيري الوراق٢٨٥/١.

(١٤) شعرية التلقي في أدب المعري/٧٥.

(١٥) السابق/٧٦.

(١٦) أبو العلاء المعري " رسالة الغفران "/٣.

(١٧) السابق/١٢.

(١٨) كتاب " لمح الملح " للحظيري الوراق٣٥٠/١ وما بعدها.

(١٩) الصناعتين لأبي هلال العسكري/٥٥.

(٢٠) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير الجزري٤٥/٢.

(٢١) لمح الملح للحظيري الوراق١٧٠/١.

(٢٢) المثل السائر١٦٣/١.

(٢٣) معجم المغني/ باب العين١٧٢/١٨.

(٢٤) مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد١/١.

(٢٥) شرحا أبي العلاء والخطيب التبريزي على ديوان أبي تمام دراسة نحوية صرفية، إيهاب عبد الحميد عبد الصادق سلامة٢٥/١.

(٢٦) السابق٢٦/١.

(٢٧) قضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة٣٤٨/١.

(٢٨) شعرية التلقي، د. حميد سمير/٨٣.

(٢٩) السابق/١٥٥.
(٣٠) السابق/ ١٥٧.
(٣١) السابق/ ١٥٩.
(٣٢) شروح سقط الزند١/١٥.
(٣٣) شعرية التلقي، د. حميد سمير/٧٦.
(٣٤) لسان العرب في (ج و ل)١٣٢/١١.
(٣٥) سورة البقرة/ الآية ٢٤٧.
(٣٦) تاريخ مدينة دمشق الكبير، لابن عساكر٤٣٧/٢٤.
(٣٧) تاج العروس٤٤٧/١٤.
(٣٨) سورة البقرة/ الآية ١٠٢.
(٣٩) سورة النور/ الآية ٣٩.
(٤٠) سورة الملك / الآية ١٦.
(٤١) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيدة ٥٠٩/٦.
(٤٢) سورة البقرة/ الآية ٢٤٨.
(٤٣) لسان العرب١١/٢.
(٤٤) تفسير السلمي١٧٤/٢.
(٤٥) كتاب الكليات٧٩٨/١.
(٤٦) أبو العلاء المعري " رسالة الغفران "/١٥.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً:

ــ القرآن الكريم.

ثانيًا:

ــ أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي (١٢٤٨ ــ ١٣٠٧هـــ)، دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٧٨ م، تحقيق: عبد الجبار زكار.

ــ البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت: ٧٧٤ هـ) " ١٤ جزءًا "، مكتبة المعارف ــ بيروت.

ــ السلوك في طبقات العلماء والملوك، محمد بن يوسف بن يعقوب، أبو عبد الله، بهاء الدين الجُنْدي اليمني (المتوفى: ٧٣٢هـ)، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، ط٢ (مجلدان) صنعاء – ١٩٩٥م.

ــ الصناعتين، لأبي هلال العسكري، علق عليه وفسَّر غريب ألفاظه محمد أمين الخانجي، ط ٢، مطبوعات محمد على صبيح بالأزهر الشريف. بدون تاريخ طبع.

ــ الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الدكتور شوقي ضيف، ط١٢، دار المعارف بمصر.

ــ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان درويش– محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

ــ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير الجزري، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ١٩٩٥م.

ــ المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، ط١، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية –بيروت –٢٠٠٠م.

ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣ ــ ٨٧٤ هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ مصر.

ــ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (٨٤٩ ــ ٩١١ هـ)، المكتبة العصرية ــ بيروت ــ لبنان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

ـ تاج العروس من جواهر القاموس (١٠ مجلدات)، محمد مرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، مكتبة الحياة ـ بيروت، دون تاريخ.
ـ تاريخ ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين بن الوردي المعري الكندي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، ط١ (مجلدان)، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
ـ تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (١٥ مجلدا)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٣م.
ـ تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي (٣٩٣ ـ ٤٦٣هـ) ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ تاريخ دمشق الكبير وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، لابن عساكر، دار الفكر ـ سوريا ، لبنان ١٩٩٧م، تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي.
ـ تفسير السلمي وهو حقائق التفسير، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، ط١، دار الكتب العلمية، لبنان ـ بيروت، تحقيق: سيد عمران، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.
ـ دراسة في مصادر الأدب، الدكتور الطاهر أحمد مكي، ط٧، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٩٣.
ـ ديوان أبي العلاء المعري.
ـ رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، تقديم الأب فؤاد إفرام البستاني، دار الشهاب ـ الجزائر ١٩٩١م.
ـ سر الفصاحة، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (٤٢٣ ـ ٤٦٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.
ـ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ)، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٣هـ، ط٩، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي (١٠٣٢ ـ ١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ شروح سقط الزند، التبريزي والبطليوسي والخوارزمي، المحققون: مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م).
ـ شعرية التلقي " النص وتجاوب المتلقي في أدب المعري "، د. حميد سمير، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر بالاشتراك مع النادي الأدبي الثقافي بجازان. ط١ ٢٠١٨م.
ـ قضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة (المتوفى: ١٤٢٨هـ)، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.
ـ كتاب " لمح الملح " لأبي المعالي سعد بن علي الحظيري الوراق (مجلدان)، دراسة وتحقيق د. يحيى عبد العظيم (ت ٥٦٨ه ـ ١١٧٢م)، ط٢، دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١٢م.
ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (٦٣٠ ـ ٧١١هـ) ، ط١، دار صادر ـ بيروت.
ـ لسان الميزان " ٧ أجزاء "، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط٣، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق: دائرة المعارف النظامية ـ الهند.
ـ مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، ط٧، دار المعارف ـ مصر ١٩٨٨م.
ـ معاهد التنصيص " مجلدان "، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (ت: ٩٦٣هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب ـ بيروت، ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٧م.
ـ معجم الأدباء. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
ـ معجم المغني.
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ)، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٨م، تحقيق د. إحسان عباس.